مجلة بحوث
كلية الآداب

البحث (٧)

النقائض الشعرية بين الجاهلية والعصر النبوى

"مقارنة تاريخية فنية"

إعداد

د / فرحان محمد عمار حمد المطيرى

المدرس بكلية دار العلوم جامعة الفيوم

الأستاذ المساعد بجامعة الأمير سلمان بن عبد العزيز

السنة ٢٥ العدد (٩٩) أكتوبر ٢٠١٤م

http : // Art.menofia . edu. eg *** E- mail: rifa2012@ Gmail.com

Scanned with CamScanner

النقائض الشعرية بين الجاهلية والعصر النبوي

مقاربة تاريخية فنية

د.فرحان محمد عمار حمد المطيري

المدرس بكلية دار العلوم جامعة الفيوم

الأستاذ المساعد بجامعة الأمير سلمان بن عبد العزيز

ملخص البحث

يعالج هذا البحث قضية النقائض الشعرية في عصرين من عصور الأدب العربي ، هما العصر الجاهلي والعصر النبوي. يقدم في بدايته مناقشة لحدود المصطلح الفنية والزمنية ، فيقف على ظروف نشأة النقائض وملامحها العامة في أطوار البداية . وهي بطبيعة الحال لا تخرج كثيرًا عن ملامح شعر الهجاء العربي مع الأخذ في الحسبان مسألة المساجلة بين شاعرين أخذًا وردًّا على نحوٍ من الأنحاء. ويتابع البحث تطور هذه الخصائص في نقائض العصر الجاهلي ثم العصر النبوي حتى يصل إلى صفات فنية تشبه في الإيقاع والمعاني والمضامين صورتَها الناضجة التي أدركها ذلك الفنُ في العصر الأموي على يد الفرزدق وجرير. ويعرض في أثناء ذلك نماذجَ شعرية وشواهد دالة يقدم لها تحليلًا موجزًا يكشف عن معالم المرحلة الشعرية وملامح التطور الفني في نقائضها . ويتدخل كذلك بمناقشة بعض المقولات النقدية المتصلة بذلك الفن . وفي نهاية المعالجة يوجز الخصائص العامة للنقائض الشعرية في كل عصر على حدة. ويختتم بخلاصة النتائج التي لمسها وأكدت عليها المناقشة العلمية في هذه الدراسة .

Scanned with CamScanner

مدخل

الموضوع والمنهجية

يشرع هذا البحث في درس مادته من خلال رؤية توصف بالمقاربة . يتبادر إلى الذهن في حقل النقد الأدبي معناها الشائع . لا تقصد دراستنا هذه إليه. إن المقاربة هنا لا تعني المفهوم الشائع في النقد من حيث كونها تقصد إلى الاقتراب من الموضوع ومعالجته معالجة صادقة عن كثب دون أن تتلبس بالحكم عليه . إن الاكتناز والاختصار ذا الدلالة المغايرة للاقتضاب هو المعنِيُّ في هذا العنوان . المقاربة في العنوان ليست اصطلاحية إذن . إنها تُستقَى من مادة لغوية مجراها : قارَبَ فلانٌ في أموره إذا اقتصد . فالمقاربةُ الاقتصاد في الأمور وترك الغلوّ فيها ، والتقصير . ومن ثَمَّ فالمقاربة التاريخية الفنية تأخذ في دراسة الموضوع بصورة تتسم بالإيجاز العلمي الذي ينأى عن كلا طرفي المعادلة : الإفراط والتفريط ، التَّزَيُّد والتقصير . بل إنه ليتخذ منهجًا وسطًا في غير اقتضاب . لقد اتخذ البحثُ عنوانًا رئيسًا يشير إلى دراسة ظاهرة النقائض بين عصرين . وفي العنوان الثاني إشارةٌ إلى زاوية الدراسة أو منهجها . فالمقاربةُ – فيما نقصد – هي الدراسة المتعمقة الإجمالية . أو بالأحرى – بشيءٍ من الوضوح – هي الدراسة الموجزة في عُمق .و(التاريخية) تشير إلى لون الطرح العلمي في البحث من حيث إنه يتابع فن النقائض في عصريه المذكورين نشأةً وتطورًا في شكل يشبه موازنةً أدبية بين نتاجه فيهما. أما(الفنية) فإنها تعني أن هذه الدراسة تنشغل – ضمن ما تنشغل به – بالوقوف أمام النماذج الشعرية التي تطرحها وقفات تحليلية تكشف عن السمات التقليدية والمكتسبة ونحوها . فالاتجاه في الدراسة أن تتم المعالجة من خلال المنهجين التاريخي والجمالي .

هدف البحث

يسعى هذا البحث إلى كشف اللثام عن صورة فنية للنقائض الشعرية في عصر ما قبل ازدهارها على يد الفرزدق وجرير في العصر الأموي . كما يتغيا رسم صورة تاريخية لأطوار نشأة هذا الفن بين الجاهلية وعصر النبوة من حيث كونه نموذجًا متطورًا في العصر الثاني عنه في الأول بطبيعة الحال . ويستهدف إجمال

Scanned with CamScanner

المعالم الفنية الأساس في ذلك الفن الشعري في بداياته الأولى التي يَعرَى فيها مما اكتسا به – بعد ذلك – من أوصاف فنية رسخت فيه وتحولت به إلى مفهومه الاصطلاحي في العصر الأموي . كما تحاول هذه الدراسة استعراض الشكل الفني لصورة النقائض في العصر النبوي .

هذا الموضوع

لدينا لاختيارِ هذا الموضوع باعثانِ ، أحدهما عِلميٌّ ، والآخر ظرفِيٌّ أدت إليه الأحداثُ والظروف . الأول يكمن في النمط الهجائي – نسبة إلى الهجاء ذلك الغرض الشعري المعروف – من الشعر العربي في أطوار تشكُّلِهِ الأولى في صورة منظمة تقوم على التبادل الحاد المحدّد ، ومن ثم إزالة الوهم القائم في أذهان الكثيرين بأن نشأة النقائض كانت متأخرة إلى العصر الأمويّ ، أو نهاية العصر الإسلامي على يد شاعري تميم وأخطل تغلب وأضرابهم . والوقوف من هذه المسألة – مسألة تجذر ذلك الفن – وقفة تضبط حدود المصطلح الزمنية . والسبب الآخر الذي أدى إلى درس هذا الموضوع كان الاضطلاع بتدريس أدب هذين العصرين في الجامعة زمنًا ما ؛ الأمر الذي هَيَّأَ الفرصةَ للاطلاع على جوانبه المختلفة وظواهره المتراكبة ؛ ومن ثم اقتناص هذه النقطة لدرسها وتجليتها .

الدراسات السابقة

إن العمل التاريخي النقدي الأول الذي يعدّ أشمل سِفْرٍ عِلمِيٌّ تناول هذا الموضوع وفصَّلَ القولَ فيه بتوسُّعٍ هو كتاب الأستاذ أحمد الشايب حول هذا الفن في عصوره الأدبية الثلاثة : الجاهلية وصدر الإسلام والعصر الأموي . هذا الكتاب عنوانه(تاريخ النقائض في الشعر العربي) الذي طُبع للمرة الأولى عام ١٩٤٦م ، ثم طبع ثانيًا عام ١٩٥٤م . وقد قدّمَ الشايبُ في هذا الكتاب – الذي لا غنى لبحثنا عن مراجعته – سردًا تاريخيًّا وفنيًّا لهذا الفن منذ بداياته الأولى التي أَصَّلَ لها بالجاهلية حتى أوج ازدهاره على يد شاعرَيْ تميم الفرزدق وجرير ، ومعهما الأخطل وآخرون في العصر الأموي.

Scanned with CamScanner

ويتوقع البحث أن يتناول موضوعه بشكل مغاير لما عند الشايب في كتابه المذكور ، من حيث التركيز على فترتي الجاهلية والعصر النبوي من جهة ، وعرض الدرس الأدبي لنماذج مختلفة من جهة أخرى . وذلك مع مراجعة خلاصات الشايب عنده وإخضاعها لرؤية الباحث موافقةً أو مخالفةً ، استنادًا إلى حجج معقولة مقبولة في هذا السياق.

والعمل الثاني الذي يتقاطع مع موضوع هذا البحث هو دراسة الدكتور محمد محمد حسين حول الموضوع العام الأشمل : الهجاء في الجاهلية والإسلام . وتختلف دراستنا هذه في معالجة وجهٍ من وجوهه ، وهو فن النقائض . جاء ذلك العمل في سِفرين مهمين : الأول حول العصر الجاهلي بعنوان (الهجاء والهجاءون في الجاهلية) ، والثاني درس الهجاء وأعلامَهُ في صدر الإسلام تحت عنوان (الهجاء والهجَّاءون في عصر صدر الإسلام) . و لا يخفى أن الهجاء هو الغرض الأساس في النقائض بجانب الفخر والرثاء. وقد تناول في الكتاب الأول مفهوم الهجاء وخصائصه وعلاقته بالسحر والشاعر والقبيلة والقيم العربية . كما درس الهجاء السياسي والديني والشخصي . وفي الثاني تناول الموضوعات نفسها في عصر صدر الإسلام ، كما عالج نقائض جرير والفرزدق والأخطل . مع أن هذا لا يُحسب ضمن صدر الإسلام ، إنما هو أمويُّ العصر . ومن ثَمّ يظل هذا العمل ذا هذا برافدٍ غزير ومادة علمية وتحليلية مهمة في زاوية واحدة بعينها هي الهجاء الجاهلي . ويعرض كذلك الحديث عن بعض أعلام الشعراء الذين ذكروه في هجاء المشركين والتناقض معهم . ويبقى محتوى الكتابين في شموله وعموميته وتعدد قضاياه كما ذُكر – خارجة شركة عن دراسة خصوصية موضوعه ، و لاسيما فيما يتعلق بأمور الهجاء في العصر

وتأتي دراسة الدكتور صلاح الدين المهدي عن الأدب في العصر والتي شاملة يوعي الأدب : الشعر والنثر ، كما تخرج عن العصر يخرج عن نطاق هذا البحث . وبهذا الأمر

Scanned with CamScanner

هذا البحثُ فيها غُنمًا محدَّدًا عندما يلتمس الحديث عن تطور هذا الفن – النقائض – وسماته الجديدة . وثمة أدبيات أخرى مصاحبة تظهر عند الشروع في الدرس من ضمنها كتب مثل (أيام العرب في الجاهلية) لعلاقتها السببية والتاريخية بفن الهجاء عماد فن النقائض – وقضايا الشعر الجاهلي والإسلامي في الكتب والمصادر التراثية والمعاصرة الأخرى.

الصعوبات

توخَّى البحثُ منذ البدء اعتماد الإيجاز العلمي أسلوبًا للمعالجة التاريخية الفنية . وهنا تكمن أولى العقبات التي واجهته . كان على الباحث أن يمنح متنَ المعالجة كثافةً علميةً وفكريةً تسعى إلى تحقيق المعادلة الصعبة في طرفيها من الإيجاز والغِنَى الدلالي . والصعوبة الثانية أن البحث في هذا الموضوع الشعري يمثل تحديًا كبيرًا من حيث المتوقع التوصُّل إليه من حقائق جديدة ونتائج لم يُسبق إليها ، بعد أن حظيت نهايات النصف الأول من القرن الماضي بِسِفْرٍ مُهِمٍّ حول النقائض يكاد يكون قد أتى على جوانبها كافة درسًا وتعليقًا ، هو كتاب تاريخ النقائض المذكور للأستاذ أحمد الشايب . ذلك الكتاب الذي وإن بدا من عنوانه حدّ التأريخ لكن شواهده لم تسلم في معالجته لها من نظراتٍ فنية أرسلها بين الحين والآخر .

التكوين

يعالج هذا البحثُ موضوعَه – كما يضح في عنوانه – في عصرين أدبيين : الجاهلية والعصر النبوي ... يؤصِّل لظاهرة النقائض في العصرين ، ويحدّد المصطلح ، ثم يناقش آراء بعض الباحثين المحدثين في تعميم ذلك المصطلح . ويعرض صورةً تحليليةً لشواهده الشعرية ، كما يقدم صورةً علمية مجملة لذلك الفن في عصرَيْ الدراسة ، من خلال تتبع نماذجهما متطرقًا إلى الصورة الحذرة لها في العصر الثاني ؛ حيث القيم الإسلامية الجديدة تكتنف شئون الحياة كافةً ، ومن بينها الشعر. ويسبق تلك المعالجة مدخلٌ يجمع بين سمات التقديم والتمهيد . ويختتم البحث بخلاصة نتائجه .

* * *

Scanned with CamScanner

النقائض[١] قصائدُ شعرية ذات وصف خاص ، تأتي صفتها الخاصة من كون القصيدة الثانية يتحرى فيها ناظمُها من الإيقاع ما يساوق الأولى ، أي تجري على وزنها ورويّها في الأغلب ، كما ترجع هذه الخصوصية إلى ارتباط هذا الفن الشعري في المقام الأول بغرض الهجاء متبادلًا بين المتناقضين من الشعراء. وفي هذا الجانب لا نوافق الأستاذ الشايب في احتسابه ما جاء من مناظرات نثرية في الجاهلية أو الإسلام ضمن النقائض[٢] ؛ لأن تحرير المصطلح وخلوصه للشعر وشهرته فيه ، وثباته في الدرس النقدي يقتضي ذلك التحديد . كما أننا لا نؤيد قصر ذلك المصطلح على نقائض الشعر الأموي بين فحوله المشهورين ، كما ذهب العلاَّمة شوقي ضيف ، حيث يرى أن ما كان من هذا اللون الشعري قبل هؤلاء الفحول - الفرزدق وجرير والأخطل ومن سايرهم - لا يقع تحت مصطلح النقائض إلا تجوزًا[٣]. فالواقع أن ما توفرت فيه أبرز معالم المصطلح - كتناظر الإيقاع وتقادح الأفكار - لا ضير أن يوصف بالنقائض ، بلفت النظر عن عدم تلبسه بالسياسة ، أو اعتماده على الرجز ، أو خلوه من العمق والتعقيد الذي وصفت به نقائض شاعري تميم فيما بعد[٤]. نعم لقد برزت النقائضُ في الأدب العربي بروزًا لافتًا في مساجلات جرير والفرزدق، وهما شاعران إسلاميان أمويان ، لكنها في الحقيقة « فن وجدت بذوره في الجاهلية بين شعراء هذيل وبين شعراء الأوس والخزرج وغيرهم من الشعراء الجاهليين »[٥].

وتكاد تنحصر الأغراض الفنية لهذا الصنف من الشعر في الهجاء - غرضًا أساسًا كما مرّ - ثم الفخر وربما الرثاء ... ولا ريب أن الفخر والهجاء يعدان في ميدان المنافسة والمطاولة وجهَيْ عملة ؛ إذ إن أحدهما يرفع الشاعرُ فيه من قدر

١ - جمع النقيضة ، وهي في الشعر ما يُنقض به ... وكذلك المناقضة في الشعر أيضًا، ينقض الشاعرُ الآخرُ ما قاله الأول. يُراجع : لسان العرب والصحاح - مادة (نقض).
٢ - يراجع رأي الشايب في كتابه : تاريخ النقائض في الشعر العربي - مكتبة النهضة المصرية - الطبعة الثانية ١٩٥٤م - ص ١٠-١١ وما بعدهما.
٣ - يراجع : التطور والتجديد في الشعر الأموي - دار المعارف - الطبعة الثامنة (د.ت.) - ص١٦٥.
٤ - يراجع : السابق ص ١٦٦.
٥ - د. السيد عبد القادر عويضة - أثر الإسلام في الشعر في عصر الرسول والخلفاء الراشدين - القاهرة - ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م ، ص٧٧.

Scanned with CamScanner

نفسه وقومه ، ضد منافسه ، وفي الآخر يحط من قدر هذا المنافس. أما الرثاء ففي بعض أنواعه ضربٌ من الاعتداد على نحو من الأنحاء ، لأن فيه ذكرًا لمحاسن الراحل وإشادة ببطولاته أو بأمجاده أو أخلاقه المحمودة.

وقد سبق القول بأن جذورًا لهذا الفن تمتد إلى العصر الجاهلي ، ولعل الباعث على إثارة مثل هذا النمط من الشعر ما كان قائما بين قبائل العرب من صراع دامٍ عنيف، كانوا يحتشدون له بكل ما أوتوا من وسيلة : سلاحًا وكراعًا ورجالاً، وأداة إعلامية تمثلت آنذاك في شاعرٍ مجيد ، أو راوية حفيظ . وتطور هذا الصراع وتحول في بدايات الدعوة الإسلامية ، حتى نشب بين المسلمين والمشركين ، ونشأ معه صراع لا يقل حدة « بين شعراء المسلمين وشعراء قريش ، وهو ما كان على شكل مساجلات أو نقائض شعرية ، دارت – غالبا- حول الوقائع والحروب التى اشتعلت بين المسلمين وقريش، وأنصار كل منهما ، وهذه النقائض تُعَدّ امتدادًا للنقائض الجاهلية»[1].

ويشغلنا في هذه الأسطر أن نرسم صورة مقاربة مجملة للنقائض الجاهلية : ملامحها ورجالها؛ لندرك المدى الذي بلغته في العصر النبوي بعد ذلك ، وكيف صح أن تكون نواة جيدة له ، بعد اعتمادها على المثيرات القبلية القوية لهذا الفن الشعري البديع .

وبطبيعة الحال لم تكن هذه القصائد الجاهلية « في أول أمرها تأخذ صورة النقائض بكل أصولها وعناصرها وشرائطها الفنية ، فذلك ما تأباه سنة النشوء والتطور ، بل نجد منها ما يأخذ صورة الرد الذي لا يتقيد بأصول المناقضة »[2]. أي الذي يركز بصورة تلقائية على عصب هذا الفن وعماده الأساس من التهاجي والتلاسن الشعري الذي عرفناه عند الهجَّائين عبر العصور الأدبية ، لكنه يتباين بينها مع تباين طبيعة المجتمع وأحداثه في كل عصر . فلم تعرف هذه البواكيرُ الفنيةُ نظامَ

١ـ د.صلاح الدين الهادي– الأدب في عصر النبوة والراشدين– دار الثقافة العربية– القاهرة ١٩٩٨ص.٢٦٦

٢ـ السابق – ص٢٦٧. ويراجع : أحمد الشايب: تاريخ النقائض في الشعر العربي- سابق ص٤٤-.٤٥

Scanned with CamScanner

التوازن الإيقاعي الماثل بين النقيضتين، وهو إحدى نتائج التطور اللاحق لهذه الظاهرة .

لكن الصورة البدائية الأولى للنقائض الجاهلية كانت - في أغلب القصائد والمقطوعات - مجرد هجاء كما أسلفنا، لا تتفق فيه القصيدتان في وزن ولا رويّ، وتتفقان في المضمون فحسب. ونسوق لها مثالاً من تهديد امرئ القيس لقتلة أبيه من بني أسد ثم رد شاعرهم عبيد بن الأبرص عليه ، وهو مثال ذاعت شهرته في التراث الشعري. يقول امرؤ القيس : (١)

يا لهف هند إذ خَطِئن كاهلا ... القاتلين الملك الحُلاحِلا
تالله لا يذهب شيخي باطلا ... يا خير شيخ حسبًا ونائلا
وخيرهم - قد علموا - فواضلا ... يحملننا والأسل النواهلا
وحَيّ صعبٍ والوشيج الذابلا ... مستثفرات بالحصى جوافلا

وقد قال امرؤ القيس شعره هذا بعدما رفض ما عرضه بنو أسد عليه ديةً لأبيه، إذ عرضوا فيما يروي الرواة أن يعطوه ألف بعير أو يُقيدُوه من أي رجل شاء من بني أسد. فقال عبيد بن الأبرص ردًّا عليه(٢):

يا ذا المخوفنا بقتل أبيه إذلالا وحَينا
أزعمت أنك قد قتلت سراتنا كذبًا ومَينا
هلا على حجر بن أم قطام تبكي لا علينا
إنا إذا عض الثقافُ برأس صعدتنا لوينا
نحمي حقيقتنا ويعض الناس يسقط بين بينا
هلا سألت جموع كندة يوم ولو أين أينا

٣- الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني- تحقيق: سمير جابر- دار الفكر- بيروت-٩/١٠٦. وقوله مستثفرات بالحصى يريد أنها أثارت الحصى بحوافرها لشدة جريها حتى ارتفع إلى أثفارها فكأنها استثفرت بها. وأثفار الدابة جمع ثَفَر وهو: السير الذي في مؤخر السَّرج . ويُراجَع : الشايب: تاريخ النقائض ... السابق ص٤٨- ٤٩ ، مع اختلاف كبير في المختار من الأبيات. وقد ذكر الدكتور صلاح الدين الهادي هذه الصورة وشاهدها ، غير أنه استند إلى ديواني الشاعرين في اختلاف يسير في بعض الأبيات. يراجع له: الأدب في عصر النبوة ... السابق والصفحة .

٢- الأغاني - السابق ٢٢/٨٧ - ٨٨. وديوان عبيد بن الأبرص ، شرح أشرف أحمد عدرة - دار الكتاب العربي- بيروت - الطبعة الأولى١٩٩٤م- ص ١١٧-١١٩.

Scanned with CamScanner

أيـام نـضـرب هـامهم ..... ببواتر حتـى انحنينـا
وجمـــوع غســـان الملـــوك أتيـــنهم وقـــد انطوينـــا
لُحُقًـــا أياطِلُهـــنَ قـــد ..... عـــالجن أســـفارًا وأينـــا

وبتأمل المقطوعتين لا نلاحظ اتفاقًا في الموسيقى لا وزنًا ولا رويًّا كما هي تقاليد النقائض المعروفة . لكنك تجد هجاءً وهجاءً مضادًّا فحسب... وإذا تَحدّدَ عُمْرُ هذا الشعر بمائتي عام قبل الإسلام على أقصى تقدير ، كما يذهب الدكتور شوقي ضيف مُعَوّلًا على رأي الجاحظ في الحيوان[1] ، فإن هذه الصورة تعدّ أقدمَ صورةٍ تاريخية للنقائض الجاهلية ؛ وذلك بحسبان امرئ القيس أقدمَ شاعرٍ نضجت لغتُهُ الشعرية في التاريخ الأدبي القديم . ومن ثَمّ فهذه الصورة يرجح أنها الأولى للسِّجال الهجائي الشعري من ذلك النوع في ذلك العصر . وبالوقوف على الإيقاع الموسيقي للقطعتين نلحظ أنهما جاءتا على نغم بَحرَيْنِ مختلفين ، نَعَم ، لكن بينهما شَبَهٌ عَروضيٌّ شَكليٌّ يتمثل في أن إيقاع الرجز – لدى الشاعر الكندي – لا يختلف عن إيقاع الكامل – لدى الشاعر الأسدي – إلا في مجرد الحركة الثانية من (متفاعلن ///o//o) في بحر الكامل ، يقابلها سكونٌ في(مستفعلن /o//o/o) وهي تفعيلة الرجز في أبيات امرئ القيس. ويزيد عبيدٌ عن ذلك ترفيلَ أبياته[2].

وثمة مسألة تاريخية ، أو لنقل زمنية جديرة بالالتفات إليها. ذلك أن كلا مصدرَيْ شعر عبيد بن الأبرص في أبياته السابقة (الأغاني والديوان) يسجلان مناسبتَها ، وهي الجلسة العرفية التي عرض فيها بنو أسد على امرئ القيس حُلولًا لفكّ أزمة قتلهم أباه . رغب امرؤ القيس من هذه الحلول عن اثنين – الدية ، أو قتل أي رجلٍ منهم – ورضِيَ الثالثَ – وهو إمهاله إياهم حَوْلًا – مهدِّدًا بني أسد بقوله: " وأما

١- يُراجع: تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي- دار المعارف- القاهرة- الطبعة التاسعة والعشرون- ٢٠٠٩م

- ص ٣٨. والحيوان - تحقيق:عبدالسلام هارون - مطبعة مصطفى البابي الحلبي - القاهرة - الطبعة الثانية ١٣٨٤ه/ ١٩٦٥م-١/٧٤. وفيه أن امرأ القيس بن حُجْر ومهلهل بن ربيعة هما أول من نهج سبيل الشعر وسهّل الطريق إليه ، ثم استدل الجاحظ بذكر امرئ القيس بعضَ أسماء الرجال في شعرٍ له ، ومن هؤلاء من كان قريب العهد بمولد الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومن ثم قدَّر الزمن. يراجع استدراك المحقق١/ ٤٢٧.

٢- وذلك بزيادة سبب خفيف على آخر الوتد المجموع ، وبه تصير (متفاعلن ///o//o) إلى (متفاعلاتن ///o/o//o). وهي إحدى صور الكامل المجزوء.

Scanned with CamScanner

النَّظِرَةُ فَلَكُمْ ، ثم ستعرفونني في فرسان قحطان ، أحكم فيكم ظبا السيوف ، وشبا الأسنة حتى أشفي نفسي ، وأنالَ ثأري "[1]. فقال عبيد تلك الأبيات ردًّا على كلمة امرئ القيس وتهديده . ولم يذكر المؤرخون ورواة الأخبار أن تلك الأبيات كانت ردًّا على أبيات امرئ القيس السابقة ، كما لم يذكروا أن الشاعر الكندي قد أنشدهم شعرًا في هذا الموقف أو في ذلك المجلس أو على أثره . فإذا قلنا إن هاتين القطعتين تعلوهما ملامحُ النقائض ، فإن ذلك على سبيل غض الطرف عن موالاة الثانية للأولى في الموقف ذاته. وهو الأمر الذي كان سمتًا واضحًا في النقائض الشعرية إبان ازدهارها على يد فحليْ تميم الكبيرين فيما بعد . ومن هنا يمكننا النصُّ على أن بعض أمثلة البواكير الأولى للنقائض كان يفتقر إلى وحدة الموقف المرتبط بوحدة المجرى التاريخي. تلك الوحدة التي تعني أن يباشرَ الشاعرُ الثاني منافسَهُ الأولَ - المُبادِرَ - الرَّدَّ الشعريَّ على أثر قوله أو بعده بقليل ، ثم يسجِّل التاريخُ وحدةَ المناسبة الهجائية في النقيضتين من حيث ترتُّبُ إحداهما على الأخرى في علاقة تشبه العلاقة السببية .

وقد ارتقى أمر النقائض الجاهلية في بعض نماذجها إلى صورة أرقى بدرجة ما حيث التقت فيها النقيضتان في البحر العروضي دون القافية ، وهو ما لاحظه الدكتور صلاح الدين الهادي فيما كان بين زيد الخيل فارس طيئ وشاعرها وعامر بن الطفيل الكلابي، ونقل نموذجه عن الأغاني[2] . لكنا نمثل له بمثال آخر ورد في منافرة عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة، حينما ذهب رهط كل منهما إلى هرم بن قطبة بن سنان بن عمرو الفزاري ليحكم بينهما.

وفي هذه المنافرة كان مع كل فارس منهما شعراؤه الذين يدافعون عنه ويفتخرون له بالشعر . فكان مع عامر لبيد بن ربيعة والأعشى ، في حين كان مع

١ - الأغاني - سابق والصفحة ، وديوان عبيد بن الأبرص - سابق والصفحة.
٢ - يراجع : المصدر نفسه ١٧/٢٦١-٢٦٢، والأدب في عصر النبوة والراشدين- سابق ص٢٦٧-٢٦٨.
وقد ذكر الأستاذ الشايب هذا النموذج نفسه في سياق صلة النقائض بالأحداث الاجتماعية في الجاهلية.
يراجع : تاريخ النقائض في الشعر العربي- سابق ص ٥٠.

Scanned with CamScanner

علقمةَ الحطيئةُ وبعضُ شعراء بني الأحوص قومه ومنهم السندري بن يزيد ومروان بن سراقة. وتراجزوا جميعًا مفتخرين. ومما قال لبيد:

إني امرؤ من مالك بن جعفر عَلْقَمَ قد نافرتَ غير مُنْفَرِ

نافرتَ سَقْبًا من سقابِ العرعر

فَرَدّ عليه قحافة بن عوف بن الأحوص مرتجزًا أيضًا:

نَهْنِه إليك الشِّعْرَ يا لبيدُ واصدد فقد ينفعك الصدودُ

ساد أبونا قبل أن تسودوا سؤدَدُكم مُطَرَّفٌ زَهيدُ[1]

ويبدو في كلام الشاعرين مسحة الهجاء ونقض المعنى ، كما نلاحظ وحدة البحر الموسيقى – الرجز – دون اتفاق الرويّ، وهو الدال عند قحافة والراء عند لبيد .

ويورد الأستاذ الشايب أنموذجًا آخرَ للمناقضة التي سبق طرحُ نموذج لها بين امرئ القيس وعبيد في الموضوع نفسه ، وهو مقتل حُجْر بن الحارث. وعلى الرغم من الاتفاق الموسيقي بين القطعتين فإنه يرى أنها مناقَضَةٌ غيرُ مكتملة الشرائط لقيامها على مجرد الأخذ والرد ... يقول الشايب : " ولما تعقَّب امرؤ القيس بني أسد ففاتوه ولقيَ بني كنانة ووضع فيهم السلاحَ خطأً قال:

ألا يا لهف هندٍ إثرَ قومٍ ... همُ كانوا الشفاءَ فلم يُصابوا

وقاهم جَدُّهمْ ببني أبيهم ... وبالأشقين ما كان العِقابُ

وأفلتهن عِلباءٌ جريضًا ... ولو أدركنهُ صَفِرَ الوِطابُ

ويظهر أن هذه الأبيات بلغتْ عبيدًا فقال ينقضها على امرئ القيس :

أتوعد أسرتي وتركت حُجرًا ... يريغ سواد عينيه الترابُ

أبَى دِينَ الملوك فهم لقاحٌ ... إذا ندبوا إلى حربٍ أجابُوا

فلو أدركت علباءَ بنَ قيسٍ ... قنعت من الغنيمة بالإيابِ"[2]

ثم يرى أن مثل " هذا الحوار لم يتخذ صورة المناقضة دائمًا ، وإنما تردد بين

١- الأغاني ١٦/٣١١ . ومعنى السَّقْب : الغصن الرّيان الغليظ الطويل . والعَرْعَر: ضرب من الشجر ، وقال بعضهم إنه السَّرْوُ.

٢- تاريخ النقائض ... سابق ص ٤٩.

الرد والحوار أيضًا ، مما يمثل طفولة هذا الفن بين هذين الشاعرين"[١].

فالمسألة عنده – وربما كان الحق معه – لا تقف عند التوافق الموسيقي التام الذي لم يُشِرْ إليه الرجلُ ، بلفت النظر عن الإقواء في بيت عَبيد بن الأبرص الأخير[٢]، لكنها تتعدى ذلك إلى أمور أخرى داخل البنية الفكرية للنص ، لعلها تتمثل عنده في مناقضة المعنى بالمعنى في صورة استقصائية . وإلا فإن هاتين القطعتين لم تدعا جانبًا سوى هذا التتبع للمعاني ومناقضة بعضها ببعض في صورة واضحة وصارمة. فهما متحدتان وزنًا وقافيةً ، وتحملان وجهَ التناقض بين فارس شاعر يأسى على فوت عدُوِّه وإفلاته من قبضته ، وقتلِ غيره خطأً ، وآخرَ من أعداء الأول يستهين به ويسخر منه ويعيِّره بمصرع أبيه. ففيهما من نقض المعنى شيءٌ لا يسعنا نكرانُه ، ومع هذا يعدها الشايب ضمن القطع الشعرية التي تشكل طفولةَ هذا الفن التي لم تكتمل فيها شرائطُهُ ، كما سبق بيانه.

وهنا قد يتساءل المرء حول شرائط النقائض! وأنه إذا اتفق للقصيدتين الوزن والقافية والموضوع وعناصر المناقضة المتعلقة بالمعاني ، فما بقيَ بَعدُ لنعدهما ضمن النقائض ؟ .. إن الشايب نفسه يرصد هذه الشرائط بعد سطور وهو يعلّق على مناقضةٍ جرتْ بين حاجب بن زرارة التميمي والحارث بن ظالم المريّ ... يقول : " فالموضوع واحدٌ وكذلك البحر دون القافية مع تناقض المعاني كما رأيت ، ومثل هذا لا يعوزه من شروط النقائض إلا وحدة القافية"[٣].

وبتطبيق ذلك على قطعتي امرئ القيس وعبيد السابقتين لا يخلو الأمر من التسليم بانطباق تلك الشروط عليهما ، ويصبح الحال أنهما ليستا بطفولة ولا بشيء ، إنهما نقيضتان استوتا على سوقهما. لكنْ يغلب على الظن أنَّ الحقيقة تكمن هنا في أمرين ، الأول : – واقع السياق الزمني في مقطوعة عبيد (نعني : هل كانت هذه في سياق الرد المباشر على تلك) . والثاني : المجرى التاريخي لها (نعني به : هل

---

١ - السابق والصفحة.

٢ - نقل الأستاذ احمد الشايب البيت الثالث الذي اعترى الإقواءُ قافيتَه عن ديوان عبيد طبعة اوربا ، وهو البيت الذي استبعدتْهُ نشرةُ دار الكتاب العربي للديوان التي عوَّلَ عليها هذا البحث: يُراجع ص٢٦ منه .

٣ - تاريخ النقائض ... سابق ص٥٢.

Scanned with CamScanner

قيلت الثانية في زمن الأولى ، أم كانت اجترارًا بعد ذلك ؟). فالشايب يسوقها في شيءٍ من الاحتمال الذي إن لم يصدق تصبح تلك القطعة غيرَ ذاتِ علاقة بقطعة امرئ القيس قبلها إلا في الموضوع فقط حيث قال فيما سبق اقتباسه:(ويظهر أن هذه الأبيات بلغت عبيدًا فقال ينقضها على امرئ القيس:...). ولفظ (يظهر) يشير إلى التردد وانعدام اليقين والافتقار إلى أدلة التوثيق. أما شارح ديوان عبيد فإنه يذكر أن البيتين أُنشِدا في سياق الرد على امرئ القيس والافتخار عليه، هكذا :" يرد على امرئ القيس ويفتخر بأسرته:"[1]. إذن فالمجرى التاريخي للحظة القول غير محدد ، بعكس ما كان يحدث في لاحق العصر بين الفرزدق وجرير وأضرابهما . فقد يكون عبيد قد ساق هذه الأبيات في إطار اجترار الذكرى أو استعادة الفخر بحدثٍ قديم ، وبخاصة أن الموضوع هو الشيء الوحيد المحدد هنا بقوله (وتركت حُجْرًا).

وفي الجاهلية نعثر كذلك بالصورة المكتملة للنقائض ، أى المستوفية شرائط هذا الفن وتقاليده . وهذا لا ينقض ماسبق الكشف عنه من أن بدايات هذا الفن الشعري لا تحمل الصورة المكتملة الشرائط ؛ لأسباب منها أن ذلك لم يكن مطردًا ، كما أن الأمر هنا تزحزح عن البدايات الأولى ليدخل إلى مرحلة التحول التي سبقت الإسلام مباشرة في يثرب . فإن أكثر ما وجدت هذه الصورة كان فى مناقضات حروب اليثربيين من القبائل اليمانية ، أعني قبيلتي الأوس والخزرج.. ومن أبرز ما يمكن أن يقوم مثالاً على هذه الصورة التامة للنقائض الجاهلية ، ما كان بين حسان بن ثابت الخزرجي ، وقيس بن الخطيم الأوسي في حرب الفريقين المعروفة بيوم الربيع . وفيها يذكر حسان ليلى بنت الخطيم أخت قيس ، فيرد قيس مفتخرًا، ويذكر عَمْرة ، وهي – فيما يروون – امرأة كانت لحسان، وقيل بل هي أخت عبد الله بن رواحة . وفي مناسبة قصيدة حسان يروي صاحب الأغانى ظروف إنشادها ونصها هكذا : " مَرَّ حسانُ بنُ ثابت بليلى بنت الخطيم – وقيس بن الخطيم أخوها بمكة حين خرجوا يطلبون الحلف في قريش – فقال لها حسان : اظعني فالحقي بالحي فقد

١- ديوان عبيد بن الأبرص - سابق والصفحة.

Scanned with CamScanner

ظعنوا ، وليت شعري ما خلفك وما شأنك : أَقَلَّ ناصرُك أم راث رافدُك ؟ فلم تكلمه وشتمه نساؤها؛ فذكرها في شعره في يوم الربيع الذي يقول فيه:

لقد هاج نفسَكَ أشْجانُها ... وعاودها اليوم أديانُها
تذكّرتَ ليلى وأنى بها ... إذا قطعت منك أقرانُها
وحجّل في الدار غربانها ... وخف من الدار سُكانها
وغَيَّرها معصراتُ الرياح ... وسَحُّ الجنوب وتهتانُها
مهاةٌ من العِين تمشي بها ... وتتبعها ثَمَّ غزلانُها
وقفت عليها فساءلتها ... وقد ظعن الحيُّ : ما شأنُها
فَعَيَّت وجاويني دونها ... بما راع قلبي أعوانُها
ويثرب تعلم أنّا بها ... إذا ألبس الحق ميزانُها
ويثرب تعلم إذ حاربت ... بأنّا لدى الحرب فرسانُها
ويثرب تعلم أن (النبيت) ... عند الهزاهز ذُلاّنُها
متى ترنا الأوسُ في بَيْضِنا ... نَهُزّ القنا تَخْبُ نيرانُها
فلا تخفرن والتمس ملجأً ... فقد عاد للأوس أديانُها"[1]

فقال قيس بن الخطيم :

أَجَدّ بِعَمْرَةَ غُنْيانُها ... فتهجر أم شأنُنا شانُها
وعمرة من سروات النساءِ ... تنفحُ بالمسك أردانُها
فإن تُمْس شطّت بها دارُها ... وباح لك اليوم هجرانُها
فما روضة من رياض القطا ... كأن المصابيحَ حوذانُها
بأحسن منها ولا مزنةٌ ... دلوحٌ تكشف أدجانُها
ونحن الفوارس يوم الربيع ... قد علموا كيف فرسانُها
ولاقى الشقاءَ لدى حربنا ... دُحَيٌّ وعوفٌ وأعوانُها

---

١ - الأغاني ٣/١٣-١٤ ، وديوان حسان بن ثابت – تحقيق: وليد عرفات- دار صادر- بيروت٢٠٠٦م- ١/٢٣٩-٢٤٠. وأشجانها : همومها وحاجاتها. والمعصرات : السحائب تعتصر المطر. والتهتان : سقوط المطر متتابعًا. وغنيانها: استغناؤها. أردانها: أردان جمع رَدن : وهو مقدم كُمّ القميص أو أسفله ، والمقصود ثيابها . وحوذانها: الحَوذَان: نبات يرتفع قدر الذراع له زهرة حمراء فى أصلها صفرة ، وورقته مدورة وهو من نبات السهل حلو طيب الطعم. دلوح: مثقلة بالماء يظهر ذلك في سيرها المتمهل.

Scanned with CamScanner

ولـــولا كراهـــة ســـفك الـــدماء لعـــــاد ليثـــــرب أدبائهـــــا
ويثـــــرب تعلـــــم أن النبيـــــت رأس بيثـــــــرب ميزانهـــــا

حسان الوجوه حداد السيوف يبتدرُ المجدَ شبانُها [1] .

ومتأمل هاتين النقيضتين بجلاء يدرك مباشرةَ صاحبيهما لبعضهما البعض بالهجاء ، لكن الملاحظ أن الأولى تلخص موقفًا حدث لحسان مع ليلى في شطرها الأول ، وفي شطر المقطوعة الثاني يفتخر على الأوس بأنهم الفوارس دونها ، وهو ما ينقضه ابن الخطيم بقوله: (ونحن الفوارس...إلخ) ثم يَصِم حسان النبيتَ وهو أحد أجداد الأوسيين[2] ، وجدّ ابن الخطيم خاصة بأنهم أذلة عند الحروب ، فيرده قيس بأن النبيت – كما تعرف يثرب كلها – كان رئيسًا في يثرب وهو سيدها وأساس العقل والحكمة والعدالة بها، وهو قوله : أن النبيت راس بيثرب ميزانها .

وتجري النقيضتان على بحر المتقارب وتقتفي كلتاهما بالنون المضمومة والهاء مع الألف ، وهو فوق ما يلزمهما من وحدات القافية .

وعلى قافية الفاء المضمومة جاءت نقيضتان أخريان للشاعرين، ابتدرهما قيس بن الخطيم يتحدث فيها عن بعض حروبهم مع الخزرج . يقول قيس مبتدئًا بالغزل:

رد الخلـــيطُ الجِمـــالَ فانصـــرفوا مـــاذا علـــيهم لـــو أنهـــم وقفـــوا
لـــو وقفـــوا ســـاعة نســـائلهم ريـــث يضـــحّي جمالَـــه السَّـــلَفُ
فـــيهم لَعُـــوب العشـــاء آنســـة الـــ ـــدَّلّ عَـــروب يســـوءها الخلـــفُ
بـــين شـــكول النســـاء خِلقَتُهـــا قَصْـــدٌ فـــلا جَبْلَـــةٌ ولا قَضَـــفُ
خَـــوْذٌ يَغِـــثُّ الحـــديثُ مـــا صـــمتت وهـــو بفيهـــا ذو لـــذة طـــرف
أبلـــغ بنـــي ججبـــى وإخـــوتهم زيـــدًا بأنـــا وراءهـــم أنـــف
إنـــا وإن قـــل نصـــرنا لهـــم أكبادنـــا مـــن ورائهـــم تجـــف

٢- محمد بن المبارك : منتهى الطلب من أشعار العرب- تحقيق وشرح/د.محمد نبيل طريفي- دار صادر- بيروت - الطبعة الأولى ١٩٩٩م - ٦/٣٤٣- ٣٤٥.

٣- النبيت هو عمرو بن مالك بن الأوس بن حارثة... يراجع: طبقات خليفة بن خياط - تحقيق/د.سهيل زكار- دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع- ١٤١٤هـ/١٩٩٣ م-١/١٣٩. وفي لسان العرب: النبيت أبو حي.

Scanned with CamScanner

لمـــا بـــدت نحونـــا جبـــاههم حنـــت إلينـــا الأرحـــام والصـــحف
نفلـــي بحـــد الصـــفيح هـــامهم وفلينـــا هـــامهم بهـــا جَنَـــفُ
يتبـــع آثارهـــا إذا اختُلِجـــت سُـــخْنٌ عَبِـــيطٌ عروقُـــه تَكِـــفُ
إن بني عمنا طغوا وبغوا ولـــجَّ مـــنهم فـــي قـــومهم سَـــرَفُ(١)

وجاء رد حسان بن ثابت ذاكرًا غزله ثم يفتخر بقومه الخزرج، وبعد ذلك يذكر سُمَيْرًا الأوسى الذى قتل كعب الثعلبى جار مالك بن العجلان الخزرجى، فكان ذلك سببًا وبداية للحرب الطويلة بين الحيين قبل الإسلام . قال حسان :

مـــا بـــال عينيـــك دمعهـــا يكِـــفُ مـــن ذكـــر خَـــوْدٍ شـــطت بهـــا قَـــذَفُ
بانـــت بهـــا غَرْبـــةٌ تـــؤمّ بهـــا أرضًـــا ســـوانا والشـــكل مختلـــف
مـــا كنـــت أدرى بوشـــك بيـــنهم حتـــى رأيـــتُ الخُـــدوجَ تنقـــذُ
دع ذا وعَـــدّ القـــريض فـــى نَفَـــرٍ يرجـــون مـــدحي ومـــدحي الشَـــرَفُ
إن تَـــدْعُ قـــومى للمجـــد تُلْفهـــم أهـــل فعـــالٍ يبـــدو إذا وُصِـــفُوا
إن سُـــمَيرًا عَبـــدٌ طغـــى ســـفهًا ســـاعده أعبُـــدٌ لهـــم نَطَـــفُ(٢)

والقصيدتان على إيقاع المنسرح بروىّ الفاء المضمومة كما أسلفنا . ويذكر الرواة أن هذا الشعر لم يرتبط بزمن ما يحمل من حدث ، أى أن قيسا وحسانًا قالاه اجترارًا لزمن وقوعه.. بمعنى أن أحدهما تذكَّرَ بداية حربهما وسببها فقال فيه ، ورد الآخر عليه. والمعروف أن الحرب بين الأوس والخزرج لم تتوقف إلا بمطالع الإسلام، بدخول النبى صلى الله عليه وسلم بينهم وما كان من مؤاخاته بين رجالهم والمهاجرين ، وأنه نزع الضغائن من نفوسهم واستلها استلالا . وبالعودة إلى المقطوعتين فإن اتهام كل طرف للآخر بالخطأ والطغيان ماثل فيهما، وبخاصة فى آخر بيت من كليهما ، فقد بدأ قيس بهذا لما قال :

إن بنى عمنا طغوا وبغوا .....

١- الأغاني ٣/٢٤-٢٥ . وديوان قيس بن الخطيم - تحقيق د.ناصر الدين الأسد - دار صادر - بيروت (د.ت.)- ص ١٠١-١١٧. وبه اختلاف عن الأغاني في بعض الألفاظ .
٢- الأغاني٣/٢٥-٢٦. والقصيدة تسعة عشر بيتًا في ديوان حسان ١/٣٨٧-٣٨٨، مع اختلاف بعض الألفاظ.

Scanned with CamScanner

فرده حسان بأن البغي إنما كان من البادئ الذي تسبب في هذه الحرب أصلا ، وهو سُمَير بن يزيد بن مالك أحد بنى عمرو بن عوف من قبيلة الأوس ، ووصفه بأنه عبد سفيه وأن قومه أو مَنْ أعانوه في قتله الثعلبي هم عبيدٌ أيضا:

إن سُمَيْرًا عَبْدٌ طغى سفهًا ساعده أعبدٌ لهم نَطَفُ

ولعل أمثال هاتين المقطوعتين بما يشملهما من جرس موسيقي عالٍ متفقٍ بينهما ، ونقض واضح متبادلٍ للمعاني ، ووسمٍ غزليّ تقليدي في صدر كل منهما ... فضلًا عن القاسم الموضوعي الماثل في الملاحاة الموروثة بين حَيَّيْ الشاعرين المتنافسين ... أقول : لعل أمثال هذا الشعر القائم على الصراع القبلي ، والتوازن الموسيقي والتناقض الفكري كان محلّ نظرٍ دائمٍ ومعاودة مستمرة من جانب الأجيال الشعرية ؛ الأمر الذي أفرز في العصور التالية ظاهرةً شعريةً كثيفة الحضور في التاريخ الأدبي ، دُعِيَت بظاهرة النقائض. وهذا الحُفول البالغ والاكتمال الواضح لشرائط هذا الفن في عملي حسّان وقيس ربما ينبئ بأن النقاد القدماء قد تأخروا في رصد تلك الظاهرة ووصفها وتحديد معالمها ووسمها بهذا الاسم المتداول. وظل ذلك الأمر عقودًا من الزمن حتى جاء عصرُ بني أمية ، وانفجرت براكين السياسة بلهيبها المتعدد الألوان والأشكال فاحتدم ذلك الفن احتدامًا ، ولفَتَ نظرَ النقاد إليه. إذن ، ليس بِدعًا من القول أن نقول إن الأنموذجين السابقين وأمثالهما يعدَّان الأب الشرعي والمثالَ الناضج الذي تقيَّلَهُ شاعرا تميم ومن معهما وتأثروا به في منظوماتهم الهجائية المتمثلة في النقائض الشعرية البارعة على امتداد العصر الأموي[1].

وعلى الإجمال يمكن رصد الملامح الفنية والشكلية في نقائض الجاهليين بأنها في بداياتها كان تعتمد على مجرد نقض المعاني وبنائها من نقيضة لأختها ، دون وجه اتفاق بالموسيقى ، ثمت تطور الأمر فبنيت على وحدة الموضوع والمعنى والموسيقى، وبهذا تمت لها أصولها الفنية، كما يمكن القول بأن الفخر والهجاء كانا

١- توفي الفرزدق عام ١١٤هـ (٢٠ -١١٤ه) ، ولحق به جرير في العام نفسه بعد شهور (٣٠ - ١١٤ه). يراجع : مقدمة شرح ديوان الفرزدق - الجزء الأول -بعناية /إيليا الحاوي - دار الكتاب اللبناني - الطبعة الأولى ١٩٨٣م- ص٥ - مقدمة ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب - تحقيق د.نعمان محمد أمين - دار المعارف - سلسلة ذخائر العرب برقم٤٣- الطبعة الثالثة (د.ت.)- المجلد الأول ص.١٢

Scanned with CamScanner

على رأس فنونها التي تأسست عليها ، أما المادة المعنوية والموضوعية فيها فإنها كانت تتمثل في الحديث عن أيام العرب وأحسابهم وأنسابهم والفضائل الحميدة كالكرم والشجاعة والنجدة... ونحوها . وكل ذلك في عصبية قبلية معهودة في الشعر الجاهلي . ومن ثمَّ فهي والشعر القبلي الهجائي سواء ، إلا من حيث كونها ذات تقاليد خاصة ، فهذا الاختلاف الوحيد .

ومما يمكن رصده فيها أيضا- ولكن على سبيل العموم والغالب - أنها نأت في هجائها عن المقذع الفاحش ، ولم يكن ديدنُ شعرائها النَيْلَ من أعراض بعضهم البعض في القبيح من المثالب ، بل اهتمت بأوصاف الجبن والبخل وذم الأعراق وأصول النسب... وبوسعنا الادعاء – على الرغم من العثور على نماذج متعددة منها في بطون مصادر شعر الجاهليين – أنها، أعني النقائض الشعرية ، لم تكن ذائعةً بينهم ذيوعَ فنون الشعر الأخرى ، فإنك لا تجد أمثلتها إلا في أعقاب الحروب غالبًا ، وقليلا ما ترى بعضها في الحياة الاجتماعية العادية [1] .

النقائض في العصر النبوي :

لعل الحديث عن مفهوم النقائض في هذا العصر يعني بصورة أو بأخرى حديث الصفات والخصائص . فالنقائض فن شعري عرفت تقاليده واستقرت فلا تتغير بتغير العصر . لكن المتغير هو تلك الخصائص التي تتشح بها وتطرأ عليها بتغير ما تحمل من قيم ومبادئ شملتها بها روحُ الإسلام التي أعدمت في الفن وفي المجتمع روحَ الوثنية ، وقِيَمَها الضالة ، وقضت عليها. ومن ثم تكون النقائض الإسلامية هي تلك المساجلات الشعرية التي دارت بين الشعراء المسلمين وشعراء المشركين في بدايات الدعوة المحمدية بعد الهجرة حتى ظهور الإسلام بفتح مكة.

وقد تولى كل فريق من الشعراء مهمة الذب عن حزبه ومبادئه التي تؤمن بها طائفته. فالشعراء المسلمون انطلقوا في قصائدهم من مبادئ الإسلام بنقائها وموضوعيتها وبعدها عن البغي والضلال ، في حين انطلق شعراء الشرك من مبادئ

١- يُراجع : د.صلاح الدين الهادي – الأدب في عصر النبوة والراشدين- سابق ص٢٦٩- ٢٧٠.

Scanned with CamScanner

العصبية والسلطة والزعامة الدنيوية والفخر الزائف بزخارف الدنيا ، والتغني بأمجادهم القبلية.

ولا ريب أن يتغير حال العربي بانسدال ستر الإسلام عليه تغيرًا جوهريًّا على مستويات كافة : التقاليد والعادات الاجتماعية ، والسلوك الشخصي ، وطرائق التفكير، والآمال والطموح ، وغايات الحمية والحماسة ... وترتبًّا على ذلك تبدَّلَ حالُ الشاعر العربي بعد اعتناقه الإسلام لتصبح غايته نصرة العقيدة السامية التي اعتقد ، والدفاع عن أمته الإسلامية الناشئة ، والافتخار ببطولات فرسان المسلمين – الذين ملأ الإيمان قلوبهم فعشقوا الشهادة في سبيل الله وأبلوا حسن البلاء – والثناء على تعاليم الدعوة الشريفة ونبيها العظيم .

ولقد ترك الإسلام صورته وملامحه على نقائض هذه الحقبة فاصطبغ شعر المدافعين عنه بصبغته المباركة وتشربت معانيها تعاليمَه القويمةَ ، فأصبحت مثلها الأعلى ونور الدرب الذى تروده هذه الأشعار ، وباركها النبيّ ﷺ ، ودعا لشعراء المسلمين بأن ينصرهم الله بروح القدس . ومن نماذج هذه الفترة ما دار في غزوة الخندق بين عمرو بن عبد ود وعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه . فيما يرويه إسماعيل بن كثير عن ابن إسحاق قال: « خرج عمرو بن عبد وُدّ وهو مقنَّعٌ بالحديد فنادى : من يبارز، فقام عليّ بن أبي طالب فقال: أنا لها يا نبي الله ، فقال: إنه عمرو اجلس ، ثم نادى عمرو : ألا رجل يبرز ؟ فجعل يؤنبهم ويقول : أين جنتكم التي تزعمون أنه من قتل منكم دخلها، أفلا تُبرزون إليَّ رجلا ؟ فقام عليٌّ فقال : أنا يا رسول الله ، فقال: اجلس ثم نادى الثالثة – يعني عمرو بن عبد ود فقال :

ولقد بُحِحْتُ من النداءِ ... لجمعهم هل من مبارز
ووقفت إذ جَبُن المشجع ... موقفَ القِرْن المُناجِز
ولذاك إني لم أزل ... متسرعًا قِبَل الهُزاهز
إن الشجاعة في الفتى ... والجود من خير الغرائز

Scanned with CamScanner

قال فقام عليٌّ رضي الله عنه فقال : يا رسول الله : أنا. فقال إنه عمرو ، فقال : وإن كان عَمْرا . فأذن له رسول الله ﷺ فمشى إليه حتى أتى وهو يقول :

لا تعجلـــنَّ فقـــد أتـــاك ... مُجِيـبُ صَـوتك غيـرَ عـاجز

فـــي نيـــة وبصـــيرةٍ ... والصـدق مَنْجَـى كـلَّ فـائز

إنـــي لأرجـــو أن أُقـــيم ... عليـــكَ نائحـــةَ الجنـــائز

مـــن ضـــربة نجـــلاء يبقـــى ... ذكرُهـــا عنـــد الهُزاهـــز

فقال له عمرو: من أنت؟ قال : عَلِيّ .قال : ابن عبد مناف ، فقال : أنا علي بن أبي طالب. فقال : يا ابن أخي مِنْ أعمامك مَنْ هو أسن منك فإني أكره أن أهريق دمك . فقال له عليّ : لكني والله لا أكره أن أهريق دمك . فغضب عمرو فنزل وسل سيفه كأنه شعلة نار، ثم أقبل نحو عليّ مغضبًا ، واستقبله عليٌّ بدرقته فضربه عمروٌ في درقته فَقَدَّها وأثبت فيها السيف وأصاب رأسه فشجّه، وضربه عليٌّ على حبل عاتقه فسقط وثار العجاج وسمع رسول الله ﷺ التكبير فعرفنا أن عليًّا قد قتله»[1] .

وبموازنة المقطوعتين نلاحظ اتحادها في الإيقاع المبني على نغمات الكامل المجزوء (متفاعلن متفاعلن) في كل شطر، وتاج القافية الزاى الساكنة فيهما . وذلك هو التقليد الموسيقى المعهود في النقائض باتحاد الوزن والرَّوي . وفي قطعة عمرو تجده يشتعل حميّة مفتخرا بشجاعته وجرأته وتسرعه نحو الأهوال، وتملكه روح التحدي، ولكننا نلاحظ أن هذه الروح تصدر عن طباع فارس جاهليّ ، ولا ترتد إلى قيم جديدة كما في المقطوعة الثانية ، بل هي قيم إنسانية عامة كالشجاعة والجود الإقدام والصبر التي هي مفخرة مشتركة بين الجاهلية والإسلام. وهذا بخلاف الشعر المنسوب لعليّ بن أبي طالب، فإنه تبدو خلاله المثل الإسلامية جلية حيث [الصدق منجى كل فائز] وأن إقدام عليّ لم يكن عن جهالة وغرور بالقوة ، بل عن [نية

١- البداية والنهاية - تحقيق : علي شيري - دار إحياء التراث العربي- الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ٤/١٢١-١٢٢. والمناجز : المخاصم . والهُزاهز هي الحروب والشدائد .

Scanned with CamScanner

وبصيرة] مستنيرة بنور الهدى والإيمان ؛ الأمر الذي تصوره بوضوح قطعة شعرية أخرى نسبت لعليّ في هذا الموقف ذاته بعد قتله ذلك المشرك :

نصرَ الحجارةَ من سفاهةِ رأيِه ... ونصرتُ ربَّ محمدٍ بصوابِ
فصدرتُ حين تركتُه متجدلا ... كالجِذْعِ بين دكادكٍ وروابي
وعففتُ عن أثوابه ولو أنني ... كنت المُقَطَّرَ بَزَّنِي أثوابي
لا تحسبنَّ اللهَ خاذلَ دينِهِ ... ونبيِّه يا معشر الأحزابِ[1]

ويلاحظ مؤرخو الأدب أن شعر مكة في الجاهلية كان ضعيفًا ، ولم يكن بين أهلها من الشعراء من له شأن كبير بالقياس إلى شعراء يثرب ، مع أن شعراء مكة لم يكونوا قليلا. وقد عَلَّلَ بعضُهم ذلك بانشغال أهل مكة برعاية البيت وبالتجارة ، وقال البعض إن السبب أن قريشًا لم تكن بينهم نائرة أي أنهم لم يحاربوا في الجاهلية[2] ، فلم يبرز في قريش شاعر فحل كما هو الحال في هذيل وأسد وكندة وغيرها. وذكروا أيضا أن شعر قريش قد ازدهر في مطالع الإسلام وقوي عُوده بتلك المناقضات التي جرت بين شعرائها وشعراء المسلمين فشحذت الشعراء ألسنتها واشتد وطيس الحرب الكلامية وحميَ وتوهج ، واستطاع عقدٌ من الزمان تقريبا أن يرتفع بشعراء الجانبين إلى ذروة الوعي والثقافة العربية ، وهو ما يمكن أن نصطلح عليه- مجازًا – بالإعلام الحربي في ذلك الوقت...

وإذا عدنا إلى الوراء قليلا قبل غزوة الخندق إلى ظروف ما يعرف في كتب التاريخ بغزوة السويق، وهي جولة لأبي سفيان بن حرب نحو المدينة في مائتي رجل من قومه وقد أقسم بعد ما نالهم في غزوة بدر ألا يمس ماءً من جنابة حتى يغزو محمدًا ﷺ ، ولكنه عاد بعد خروجه فاشلاً في تحقيق شيء ذي بال، غير أن رجاله قتلوا رجلين أحدها أنصارى والآخر حليف له، وحرقوا بيوتًا وتبْنًا بناحية من نواحي المدينة تسمى العريض ، ثم فروا هاربين ؛ وكان النبي ﷺ قد جمع الناس فانطلقوا

١- يراجع : السابق- الموضع ذاته. والدَّكادِك جمع الدَّكْدَاك ، وهو من الرمل : ما التبد منه بالأرض ولم يرتفع
المُقَطَّر : يقال طُعنه طعنة فقطّره ألقاه على أحد قطريه .
٢- يراجع: د.يحيى الجبوري- شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه- مؤسسة الرسالة - دمشق١٩٨١م- ص ٢٠٦- ٢٠٧. والنائرة هي العداوة والشحناء .

Scanned with CamScanner

وراءهم فلم يلحقوا بهم. وكان أبو سفيان قد قال عندما كان يعدّ رحاله عند خروجه إلى المدينة في غزوته الفاشلة هذه ، يحرض قومه:

كُـــرُّوا علـــى يثـــربٍ وجمعِهِـــمُ ... فـــإن مـــا جَمَعـــوا لكـــم نَفَـــلُ
إن يـــك يـــوم القليـــب كـــان لهـــم ... فـــإن مـــا بعـــده لكـــم دولُ
آليـــت لا أقـــرب النســـاء ولا ... يمـــس رأســـي وجلـــدي الغُسُـــلُ
حتى تُبيروا قبائل الأوس ... والخـــزرج إن الفـــؤاد مُشتَـــعِلُ

فرد عليه كعبُ بن مالك الأنصارى

يـــا لهـــف أم المســـبحّين علـــى ... جـــيش ابـــن حـــرب بـــالحرة الفَشِـــلِ
أتطرحـــون الرجـــال مـــن سَـــنَم الظهـــر ... ترقّـــى فـــي قنـــة الجَبَـــلِ
جـــاؤوا بجمـــع لـــوقيس منزلُـــه ... مـــا كـــان إلا كمُغـــرسَ الـــدُّئِلِ
عارٍ من النصر والثراء ومن ... نجـــدة أهـــل البطحـــاء والأســـلِ[1]

وإيقاع المنسرح ظاهر في موسيقى المقطوعتين، والقافية واحدة كذلك ، غير أنها مضمومة اللام في الأولى، مكسورة فى الثانية ... ويَغلب على النقيضتين الطابع الجاهلي في المعاني والتراكيب ، على الرغم من كون الثانية تمثل صوت معسكر الإسلام ، وفيها سخرية مرة من صنيع أبي سفيان وجيشه الهزيل الذي لم يحقق نصرًا ، ولم يكن بين جنوده أبطال ولا فرسان. أما أبو سفيان فقد حرَّض قريشًا وحمَّسهم بعدد من الأمور يذكرونها: منها أن انتصارهم على جماعة المسلمين بيثرب يجعلهم غنيمة حرب لهم . ومنها أيضا تذكيرهم بما حدث لأهلهم فى غزوة بدر حيث قتلاهم في البئر ، وذلك لاستثارتهم للثأر لهم من المسلمين . ومنها يمينه التي أقسمها ويريدهم أن يعينوه على أن يبر بها بإبادتهم أنصارَ النبيّ من الأوس والخزرج الذين تشتعل نفسه غضبًا منهم. وهكذا فالمعاني والتعابير – كما سبق القول – عند الشاعرين بوسم جاهليّ لم نلمس فيها، وبخاصة عند كعب الأثر الإسلامي ، وبوجه عام يمكن القول إنه قد " ظلت المعاني جاهلية خالصة في نقائض شعراء قريش ومن

١- يراجع: الأغاني- سابق ٦/٣٧٣-٣٧٥. ومحمد بن جرير الطبري: تاريخ الرسل والملوك ، المعروف بتاريخ الطبري- دار التراث- بيروت- الطبعة الثانية ١٣٨٧هـ-٢/٤٨٣-٤٨٤.

Scanned with CamScanner

والاهم ، وظهرت المعاني جاهلية في نقائض الإسلاميين أيضا ، خالية من الفحش"[1] .

وللنساء نصيب لا ينكر في هذه المعارضات الشعرية تذكره كتب الأخبار ، ولقد كانت المرأة في أغلب الأحيان ساعدًا معينا وجبهة مساندة لجيش المسلمين في عدد من الغزوات ، كما كان في أحد . وخلف المعسكر في الخندق ، فربما قامت بما لم يقم به بعض الرجال [2] . وفي مقام النقائض تشهد غزوة أحد – بأحداثها الجسام بدءًا من التمثيل بجسد حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه وانتهاء بجراحات المسلمين فيها– من ذلك شيئا كثيرًا . منه ما قالته هند بنت عتبة زوج أبي سفيان بن حرب ، وقد تولت بنفسها التمثيل بالجسد بمساعدة وحشيّ.

وقد نقضت قولها هند بنت أثاثة بن عباد بن المطلب . قالت بنت عتبة تتشفى بمصاب المسلمين :

نحن جزيناكم بيوم بدر ... والحرب بعد الحرب ذات سُعُر
ما كان عن عتبةَ لي من صبر ... ولا أخي وعمه وبِكري
شفيتُ نفسي وقضيتُ نذري ... شفيتَ وحشيُّ غليلَ صدري
فَشُكْرُ وحشيٍّ عليَّ عمري ... حتى تَرِمَ أعظمي في قبري

فأجابتها هند بنت أثاثة قائلة :

خَزِيت في بدرٍ وبعد بدرِ ... يا بنت وقاعٍ عظيم الكُفْرِ
صبحك الله غداة الفجر ... بالهاشميين الطوال الزُّهُرِ
بكل قَطّاعٍ حسامٍ يَفْري ... حمزةُ ليثي وعليٌّ صقري
إذ رام شَيْبَ وأبوكِ غدري ... فخضبا منه ضواحي النحرِ
ونذرُك السوء ... فَشَرُّ نذري[3]

١- د/ صلاح الدين الهادى – الأدب في عصر النبوة والراشدين – صـ ٢٧٠ . ويراجع : تاريخ النقائض لأحمدالشايب ص ١٥٥ – ١٥٦.

٢- نشير هنا إلى ما ورد في السيرة من قتل صفية بنت عبد المطلب يهوديا اقترب من حصن حسن بن ثابت وفيه النساء يوم الخندق ، ولم يفعله حسان.

٣- شهاب الدين النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب - دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة- الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ - ١٧/١٠١ -

Scanned with CamScanner

والنقضيتان كما يبدو أرجوزتان والراءُ المكسورة رَويُّهما . وتحمل الثانية شيئًا من المعاني الإسلامية حيث التعيير بالكفر ، وذم قتلى هند في بدر وهم عمها شيبة وأبوها عتبة وغيرهما ، ووصفتهم بالغدر ، وأن نذرها الذي نذرت لهو نذر السوء والشر. ولا يكون النذر في الإسلام في مثل ما صنعت بنت عتبة التي برز في شعرها واضحًا مشاعرُ التشفي والعزم المسبق على الثأر ، الذي غُلّ عليه صدرُها ، وكيف دبَّرت له مع وحشيّ ونفذته بصورة شنيعة . وكلها معانٍ وتعابير جاهلية بطبيعة الحال لأن قائلتها لم تكن مسلمة آنذاك .

ومن سادة الشعر الإسلامي ، وكذلك في هذا الفن ، النقائض الإسلامية : أبو عبد الرحمن حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي ، الذي قيل عنه إنه تفوق على الشعراء بثلاثة أمور : إنه كان شاعر الأنصار في الجاهلية ، وشاعر النبي صلى الله عليه وسلم في النبوة وشاعر اليمن كلها في الإسلام . وقد ذكروا أن أول دفاع شعري عن الإسلام قام به حسان كان نقضًا لبيتي ضرار بن الخطاب الفهري – شاعر قريش وفارسها – لما أخذت قريش سعد بن عبادة أحد أصحاب العقبة الثانية مغلول اليدين إلى مكة رغبة في إيذاء أصحاب النبيّ ، ولم تتمكن من المنذر بن عمرو وكانا نقيبين من أصحاب هذه العقبة ، وقد أنقذ جبير بن مطعم والحرث بن حرب بن أمية سعدًا . وقال ضرار في ذلك :

تداركتُ سعدًا عنوةً فأخذتُه ... وكان شفاءً لو تداركتُ منذرا
ولو نِلْتُه طُلّت هناك جراحُه ... وكان حَرِيًّا أن يُهانَ ويُهدرا

فَرَدَّه حسان قائلا:

ولست إلى سعد ولا المرء منذر ... إذا ما مطايا القوم أصبحن ضُمَّرا
فلولا أبو وهب لمرَّت قصائدٌ ... على شرف البرقاء يهوين حُسَّرا
أتفخر بالكتان لمّا لَبِستَهُ ... وقد تلبس الأنباطُ رَيْطا مقصّرا
فلاتك كالوسنان يحلم أنه ... بقرية كسرى أو بقرية قيصرا
ولا تك كالثكلى وكانت بمعزل ... عن الثكل لو كان الفؤاد تفكرا
ولاتك كالشاة التي كان حتفها ... بحفر ذراعيها فلم ترض محضرا
فإنّا ومن يهدي القصائد نحونا ... كمستبضع تمرًا إلى أهل خيبرا[1]

١- يراجع : سيرة ابن هشام- تحقيق: مصطفى السقا وآخرَين- مطبعة مصطفى البابي الحلبي- الطبعة الثانية، ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م-١/٤٥٠-٤٥٢. ويُراجع أيضا: شعر المخضرمين ... سابق ص٦٥-٦٦.

Scanned with CamScanner

هنا يبطل حسانُ فكرةً نقدية ترى أن ثاني الشاعرين المتناقضين – في الملحوظ – يكون أضعفَ من أولهما ؛ لأن الأول حدَّد له الموضوع والمعاني والإيقاع وحصره فيها! فلم تعد له حرية في شيء منها. أما الأول فإنه يُسعفه امتلاءُ نفسه بالغرض الشعري والبواعث التي أثارت الهجاء عنده منذ البدء ، مما ينعكس على نقيضته روعة وجودة[1]. إن حسان في هذه النقيضة قد أخلف هذا التصور وأفسد تلك الملحوظة ، فقد استحكم لأبياته صوغُها وقويت لبناتُها ، ولَمَعَتْ معانيها بصورة لافتة للناقدين. فالواضح أنه لا يكتفي بنقض ما في البيتين من معنى ، لكنه يستطرد فيما وراء ذلك لذكر أشياء يعيبها على ضرار: مثل كونه طامحًا طموحًا خياليًّا بالنيل من المسلمين ، فهو لن يدرك ذلك إلا في أحلامه وأمانيه المستحيلة فإن ركْب الإسلام ماضٍ في نماء ، وخيله في المواجهة ، وإن هذا التحدي الذي يبديه ضرار سينقلب عليه ، كأنما يحفر بيديه مثواه ويضع نهايته ، وأنه سيندم على ما أقدم عليه كما تندم من فقدت ولدها على أنها لم تَتَرَوَّ إذ تركته يقتل ، وإنه لمن الحمق وفساد الرأي أن يصوغ شعرًا في ذلك ضد قوم هُمُ دوحة الشعر وأرومته ، وهو في ذلك مِثْلُ مَن ينقل تمرًا إلى خيبر – وهي بلاد التمور – ليبيعه فيها ! ...

ولا يخفى أن بيتي ضرار وقطعة حسان كلاهما على أنغام البحر الطويل [فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن] في كل شطر ، مع ما يداخلها من بعض الزحافات أو العلل . كما أن حرف قافيتها هو الراء المفتوحة . لكننا نعثر في بعض الأحيان على نقيضتين تتباينان رَويًّا على الرغم من الاتفاق في الوزن الشعري. ومما يمثل ذلك لومُ كعب بن زهير أخاه بُجيرًا على إسلامه، ورَدّ بجير عليه ، وكان بجيرًا قد أسلم قبل كعب ، الذي تأخر إسلامه حتى أُهدر دمه لهجائه الذي آذى النبيّ ثم اعتذر له– صلى الله عليه وسلم– ومدحه بلاميته المشهورة بمطلعها(بانت سعاد)، فعفا عنه . يقول كعب قبل إسلامه مخاطبًا أخاه :

١- تراجع هذه الفكرة في : تاريخ النقائض في الشعر العربي - سابق ص ٢٦ .

Scanned with CamScanner

ألا أبلغا عني بُجيرًا رسالةً ... فهل لك فيما قلتُ - ويحك - هل لكا

شربتَ مع المأمون كأسًا رَويَّةً ... فأنهلَكَ المأمونُ منها وعَلَّكا

وخالفتَ أسبابَ الهدى واتبعتَهُ ... على أيِّ شيءٍ- ويبَ غيرك - دلكا

على خُلُقٍ لم تُلْفِ أُمًّا ولا أبًا ... عليه ولم تدرك عليه أخًا لكا

وكان رد بجير فى قوله:

من مبلغٌ كعبًا فهل لك في التي ... تلوم عليها باطلاً وهي أحزَمُ

إلى الله لا العُزَّى ولا اللات وحده ... فتنجو إذا كان النجاءُ وتسلمُ

لدى يوم لا ينجو وليس بمفلتٍ ... من النار إلا طاهر القلب مسلم[1]

وأعجب ما في هاتين القطعتين أنهما تصدران عن أخوين أخوةَ دمٍ ، ومن ثم فلا سبيل فيهما للتعبير بشيء عدا الضلال الفكري الذي يعتقده كل منهما في الآخر . ويبرز كل منهما حرصه على هداية الآخر إلى نهجه خشية عليه مما يراه انحرافًا عن جادة الصواب. وإن كان من ذكر للرحم بينهما فإن كعبًا يذكّر بجيرًا بأن ما اعتنقه من دين ليس عليه أبوه ولا أمه ، وهي الدعوى الجاهلية ذاتها (ما وجدنا عليه آباؤنا) يستدعيها كعب . ولكن بجيرًا يذكره بما في هذا الدين من الوحدانية : الاتجاه إلى الله وحده بالعبادة دون ما لا ينفع من الأحجار والأصنام . ويرد عليه لومه بأن الصواب وعين العقل والحزم هو ما يتحاشاه كعب ويلوم عليه، وأن النجاة في الإسلام. وتختلف القطعتان عما سبقهما من نقائض العصر النبوي هنا في الاكتفاء بوحدة البحر – الطويل – واختلف فيهما الروي : الكاف المفتوحة عند كعب، قابلتها الميم المضمومة عند أخيه.

بقي لنا أن نجمل صفاتٍ عامةً تميزت بها نقائض هذه الفترة ، مكتفين بما سقناه من نماذجها عما اتسعت شواهده ونماذجه بشكل ملحوظ في كُتُب السير والأخبار . ومن حيث الشكل نلمس أسلوب الشعر الجاهليّ ماثلا فيها ، لكنه مُطَعَّمٌ ببعض الألفاظ والتعبيرات التي أدخلها الإسلام مثل التقوى والصلاة والجهاد والقيامة والنار

١ - د. شوقي ضيف : العصر الإسلامي (تاريخ الأدب العربي٢)- دار المعارف - الطبعة الحادية عشرة (د.ت.) ص ٨٤.

Scanned with CamScanner

والجنة ،... كما نلمس هيمنة روح الحمية الإسلامية وبروزها ، حيث الحق والعدل ونعيم الآخرة هي الغاية الصائبة والمرمى السليم. كما لوحظ النأي- غالبا - عن الألفاظ النابية المرذولة ؛ اتباعًا للإسلام واتقاءً لمقارفة فاحش القول الذي لا يليق بمسلم .. وإن تكن نقائض الجاهلية قد نأت في كثير من الأحيان أيضا عن ذلك بدرجة تخلصت فيها من سلبيات الهجاء المطلق .

وفي المضامين طُرحت في الساحة الشعرية قضايا وأفكار جديدة لم يعهدها عرب الجاهلية ولا شعراؤها كقضية الشهادة في سبيل الله والتنافس عليها وتمنى إحدى الحسنيين ، هي أو النصر. وقضية الاعتزاز باعتناق الإسلام والصدور عنه قولاً وسلوكًا ، وافتداء نبيه بالنفس والعرض والمال . ومسألة العدالة التي أوجدها الإسلام في كل شيء وبخاصة في المساواة بين السادة والعبيد فلا فرق إلا بتقوى وصلاح . ثم قضية تسفيه رأي الخصم في معبوده الوثني ، ودعوته إلى التفكير وإنعام النظر ليصل بعقله وقلبه إلى الصواب.

* * *

Scanned with CamScanner

خاتمة

وهنا نختتم البحث بما عَثَر به من ملحوظات تكاد تشكل حقائق أدبية ، أو على الأقل نتائج علمية نجملها في الآتي :

١- ينحصر مصطلح النقائض في الشعر العربي . أما ما جاء على شاكلته في النثر فلا يرى الباحث وَسْمَه بذلك ؛ لظهور المصطلح في الشعر وارتباطه به واشتهاره فيه . كما أن المجادلات الفكرية التي جرت في النثر قد اصطفت لنفسها في حينها مصطلحات أدبية أخرى كالمناظرات والمنافرات والمساجلات .

٢- أن جذور النقائض الشعرية تمتد إلى عمق يكاد يصل إلى عمق الشعر العربي نفسه في الجاهلية .

٣- أن الإسلام - وبخاصة في فترة النبوة - قد ترك أثرًا ملموسًا ملحوظًا في الشكل والمضمون على ذلك الفن الشعري / النقائض ، بله فن الشعر العربي بوجه عام.

٤- أن ما جاء من شيات جاهلية بدت بها طُرُقُ الأداء الشعري أو المضمون أحيانًا في نقائض العصر النبوي لاتمثل خطًّا عريضًا أو وسمًا عامًّا طاغيًا فيها ، إنما هي مجرد ملامح أوجدتها عملية التحرر والتخلص التي تعدّ مخاضًا لذلك الفن وللشعر عمومًا عبَرَ به إلى المرحلة الإسلامية بكل تقاليدها الجديدة الطارئة.

٥- أن بروز معالم التعبير الجاهلي في شعر عصر النبوة يعد أمرًا مقبولًا وبدهيًا ؛ لأن الشعر العربي ذاته - بعد العصر الجاهلي - ظلَّ أسيرَ ذلك الأسلوب التعبيري العالي ، في طبعٍ شعري موروث أو تقليدٍ حميم يزهو به أصحابه ويرون فيه مناط التفوق والجودة. ولم يكد يتخلص الشعر من ذلك السمت حتى تخلصت منه الحياة نفسها بتغير نمط الحياة الاجتماعية والاستمتاع بثقافات المجتمع الإسلامي الجديد الواردة من البلدان المفتوحة .

٦- يحدس الباحث بأن جُلَّ الفنون والظواهر الشعرية لا يُتَصوَّر أنها تظهر طفرة أو فجأة ، بل إنها تتكون نتيجة سَبْقِها بصور متعددة من تلك الفنون والظواهر لم تكن قد استوفت بعدُ خصائصَها وتقاليدَها التامة التي بدت عليها في مرحلة النضج . ولعل هذا يتوافق مع طبيعة حدوث الظواهر بوجه عام ، ومع طبيعة حركة الموجودات وتحوّلها في الحياة أيضًا .

Scanned with CamScanner

Opposites between ignorance and poetic era of the Prophet Historical artistic approach

Abstract

This research deals with the issue of poetic antitheses in two eras from the ages of Arabic literature. They are: the pre-Islamic era and the age of the Prophet .It Provides at the beginning a technical and temporal discussion of the term limits ,and also stands on conditions of the emergence of antitheses and its public features in starting phases . By the way it does not differ a lot from the features of the Arab poetic satire taking into account the issue of Poetic debate between two poets and taking in response to some of the parts. This research follow the evolution of these characteristics of poetic opposites in the pre-Islamic era, and the Prophet's age until it reaches the technical characteristics are similar in rhythm and meanings and implications to the mature image of this art in the Umayyad period by Farazdaq and Greer. And displays it in the course of the poetic models and evidence function provides a brief analysis reveals the features of the poetic stage and technical development in its antitheses . And it intervenes as well as discussing some critical arguments related to this art. At the end of discussion it summarizes the general characteristics of the poetic antitheses in every age separately. It concludes with a summary results touched and confirmed by the scientific discussion in this study.

Scanned with CamScanner